تاريخ المسكرات

لا امة على وجه البسيطة الاَّ وعندها مسكر من المسكرات او مخدّر من المخدّرات كأن في الانسان ميلاً فطريًّا الى استعمال ما يسكّن الحواس ويفرج الكُرَب ولو كانت مضارهُ تربو على منافعهِ فاستعمل المسكرات على انواعها وعمَّ استعمالها طبقات الناس غنيهم وفقيرهم عظيمهم وحقيرهم واكثرهم يقول مع ابي نواس

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هيَ الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكنَ الجهرُ

وقد اجمعت تواريخ الامم القديمة كالصينيين والهنود والعبرانيين والمصريين والفرس على ان المسكرات كانت تستعمل في العصور الغابرة كما تستعمل الآن فكان الصينيون يصنعون الخمرَ من العنب والمزر من الارزّ ويشتركان في شربهما سوقة الناس وسراتهم حتى الملوك على عروشهم

وجاء في كتب البراهمة الدينيَّة ذكر كثير من المسكرات وطرق شربها وادمانها وتهافت الكهنة والحكام عليها. وذُكر فيها نوع من الخمر اسمهُ صوما يُصنع من عصار النبات ويسكب للآلهة سكبًا فتشربهُ وتسكر بهِ وتطيب نفوسها ويجوز لمن يكبهِ ان يشربوا بعضهُ فاذا طابت بهِ نفوسهم قالوا ان الآلهة رضيت عنهم وانعمت عليهم بما شعروا بهِ من الانبساط وخفَّة الروح

وكثر ذكر الخمر في التوراة ووصف ما ينتج عنها من النفع والضرّ فقيل انها " تفرّح قلب الانسان "وانها " تلسع كالحية وتلدغ كالافعوان ". ولذلك قال البعض ان الخمر الممدوحة هي السلافة اي عصير العنب غير المختمر والمذمومة العصير المختمر

وعَصَر المصريون الخمر من العنب واستخرجوا المزر (البيرة) من الشعير منذ خمسة آلاف عام ورسموا صور الكروم والمعاصر والدنان على جدران هياكلهم ومدافنهم . ويجد اهل الدقهلية دنانهم مختومة بالقار الاَّ ان خمرها استحال بخارًا وترابًا. وقد نظر الندمان ختم انائها وعلموا انها من بقايا قوم نوح ولكن لم يسكرهم ختمها ولا جلَت غلمةَ الاحزان والكُرَب . وجلُّ ما استندناهُ منها اننا علمنا مكانها من نفوس المصريين القدماء وعلمنا انهم كانوا يعنون بتعتيقها كما يعنى بهِ اكبر محبيها في هذا العصر

وكانوا يجلسون في مجالس الشراب رجالاً ونساء يطوف عليهم الغلمان والجواري بقلائد الازهار وكؤوس النضار ولسان حالهم يقول

اشرب على زهر الرياض بشوبهِ زهر الخدود وزهرة الصهباء
من قهوة تنسي الهموم وتبعث — الشوق الذي قد ضلَّ في الاحشاء

والغلمان عراة كالولدان لا حلي عليهم ولا حلل الاَّ التبابين تستر عوراتهم والجواري مسدلات الشعور مقلدات النحور على رؤوسهنَّ العصائب وفي معاصمهنَّ الاسوار وفي اذانهنَّ الافراط وليس على ابدانهنَّ غير سيور دقيقة يقصد بها التجلي اكثر من الاستتار

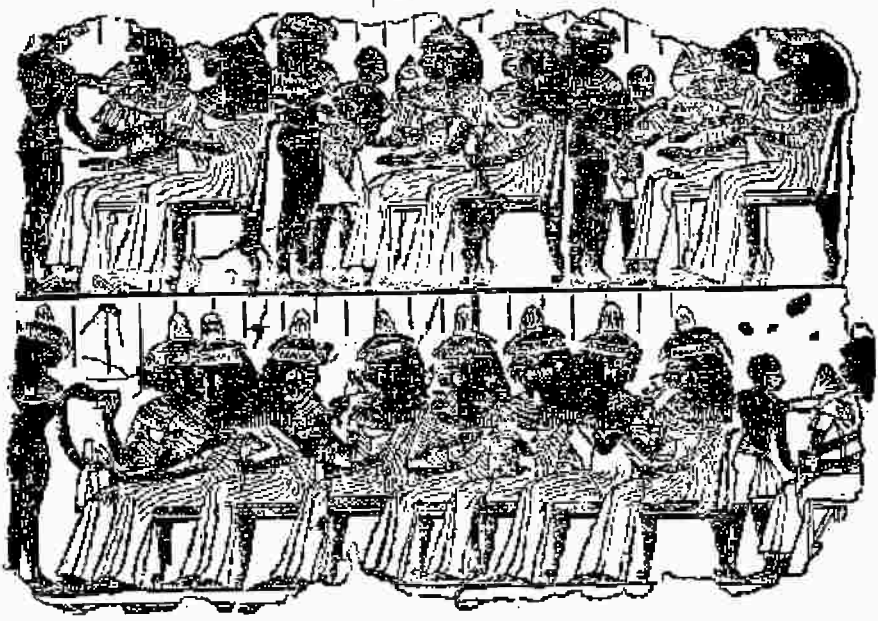

المصريون القدماء في مجلس الشراب

وكانوا يسكرون احياناً ويعربدون ويُحمَلون من مجالس الشراب على المناكب والرؤوس ولم تزل صورهم الى يومنا تؤيد ما تقدم كما ترى في هاتين الصورتين فان الاولى منها صورة مجلس من مجالس الشراب قبل تناول الطعام والثانية على الصفحة التالية صورة كروم العنب معترشة في شكل قوس واثنان يسقيانها واثنان يقطفان عناقيدها

وفي كتاب الفرس القدماء اشارات كثيرة الى المسكرات ولها فيهِ اسماء شتى ومنها الحما (اي الحميا) والحورا. وكان المادیون اهل سكر وخلاعة فسهل على قورش الفارسي التغلُّب عليهم برجالهِ الفرس سكان الجبال اهل الشدة والشدَّة. فلما تمَّ لهم النصرُ عكفوا على الملاهي والتمسوا في الملاذ. ويُقال عن ملكهم زركسيس خليفة قورش العظيم انهُ كان اقدر على شرب الخمر من كل رجل في مملكتهِ فلا غرابة اذا تغلب اليونان عليهم بعد ذلك وفخرُ ملوكهم ادمان المسكرات

ولم يكن اليونان يحرّمون المسكر ولكنهم كانوا مقتصدين في شربه غاية الاقتصاد شأن اكثر الامم آلتي الخمر من نتاج ارضها فانهم استخرجوهُ اولاً من الشعير والتين والتمر ثم اشتهرت خمرهم آلتي كانوا يستخرجونها من العنب وتفننوا في زرع الكرم وحسبوهُ من اكبر الهبات الالهيَّة لكنهم كانوا يراعون شأن اجسادهم ويهتمون بتروِيضها وتقويتها ويبتعدون عن كل ما يضعفها فلم يشع السكر بينهم لانهُ مخالف لما كانوا يسعون اليهِ من تقوية الابدان وكانت خمرهم ضعيفة قليلة الالكحول ولم يشربوها الاَّ ممزوجة بالماء وكانوا يكثرون قتلها بالماء حتى لقد يمزجون الكاس منها بعشرين كأساً منهُ وان قلَّوا الماء مزجوا الكاس منها باربع او خمس منهُ . واذا اجتمع شبانهم لوليمة وشربوا الخمر ممزوجة الكاس منها بثلاث كؤوس من الماء مُتي عمهم اسكتبة نسبة الى الاسكتيين البرابرة المتوحشين

كروم العنب عند المصريين القدماء

ولا يبعد ان بعضهم كان يستحلُّ الشرب ويبالغ فيهِ حتى يسكر لكن كان ذلك نادرًا او قليل الشيوع . وغاية ما كانوا يقصدون من شرب الخمر الطرب لا السكر . وصوروا ديونيسوس اله السكر بصورة ولد يضحك ويمزح ثم بصورة شاب جميل الطلعة ثم بصورة رجل طالق لهيًّا محب للعلم والادب

وكانت ايام قطف العنب عندهم ايام سرور وحبور ولعب ومزاح كايام القطاف في جبال لبنان . وسميت الالعاب التي كانوا يلعبونها حينئذٍ كوميديا نسبة الى كومُس وهو اسم المركبة آلتي كان اللاعبون يركبون عليها

ونشبت الحروب الاهليَّة بين اثينا وسبرطة وطيبة فاستنزفت قوى اليونان وحلَّت عزائمهم فامسوا غنيمة باردة لسكان الجبال وهم اقوام خشنو الطباع جمَعَ شملهم فيلبس المقدوني ابو الاسكندر وتغلَّب بهم عَلَى اليونانيين وكان رؤساؤهم يكثرون من شرب الخمر وجاراهم فيلبس عَلَى ذلك فشاعت خلَّة السكر وضربت في البلاد اعراقها

يروى ان احد الفلاسفة رفع دعواهُ الى الملك فيلبس فحكم عليهِ لا لهُ فقال اني استأنف الحكم . فقال فيلبس الى من تستأنف وانا الذي حكم عليك. فقال اني استأنف منك سكران اليك صاحيًا . فكان لكلامهِ وقع عظيم عند فيلبس فسمع دعواهُ في اليوم التالي وحكم لهُ

ويروى ان فيلبس طلّق زوجتهُ اولمبياس ام الاسكندر وتزوّج باخرى واولم لذلك وليمة كبيرة وكان عمُّ زوجتهِ الجديدة حاضرًا فيها فتكلم كلامًا اغاظ الاسكندر فرفع الاسكندر كاس الشراب ورماهُ بها فاغتاظ فيلبس من ذلك واستلَّ سيفهُ وهجم على الاسكندر ليقتلهُ وكانت الخمر قد لعبت برأسهِ فعثر وسقط على الارض فقال الاسكندر من فورهِ "انظروا يارجال مقدونية ان الرجل الذي يريد ان يزحف بكم من اوربة الى اسيا لا يستطيع ان ينتقل من كرسي الى آخر بلا عثار"

ورقي الاسكندر الى عرش الملك في السنة التالية وكان مثال ابيهِ لم يزل نصب عينيهِ فبذل جهدهُ في تجنُّب كل ما يضعف ملكهُ او يمنعهُ من بلوغ الغرض الذي طمحت اليهِ عيناهُ ولم يمضِ عليهِ سنتان حتى عبر الى اسيا فدوَّخ بر الاناضول ومصر والشام والعراق وبلغ بلاد الهند . تهر الملك لكن الخمر قهرتهُ وصرع الابطال لكن ابنة العنب صرعتهُ فدخل بلاد قرمان في زي ديونيسوس اله الخمر وحولهُ موكب من السكارى ولعبت الخمرُ برأسهِ في سمرقند فقتل صديقهُ كليتوس وكان قد انقذهُ من القتل . وسكر في برسبوليس عاصمة الفرس فامر بحرق قصر الاكاسرة . ثم اولم وليمة عظيمة لكبار قوادهِ ووعد من يقرع غيرهُ في الشرب بتاج من الذهب فتبارى الرجال في هذا المضمار ونال التاج شاب اسمهُ بروماخوس بعد ان شرب ثلاثين رطلاً (مصريًا) من الخمر. وعصفت الريح بليلاً تلك الليلة فخرقت ابدان اولئك السكارى الى عظامهم فمات اربعون منهم شهداء السكر ورأى ذلك سائر القواد فتذمروا وتململوا واكن الخمر

معوَّدةٌ غصب النفوس كأنما لها عند ألباب الرجال ودائعُ

فطأطأ لها الاسكندر راسهُ وبقي على ولائها حتى اخمدت انفاسهُ فانهُ اقام مرَّةً في مجلس الشراب يومين وليلتين فاصابتهُ حمَّى قضت عليهِ وهو في الثانية الثلاثين من عمرهِ

وتاريخ الخمر في بلاد الرومان كتاريخها في بلاد اليونان فان الرومانيين كانوا اولاً رجال بأس ونجدة حاربوا دفاعًا عن انفسهم ثم بقصد الغزو والكسب ومرَّت عليهم السنون وهم اهل حرب وجلاد لا يشربون المسكر ولا يتنعمون بالملاذ . وكانت خمرهم رديئة ولم يكن يشربها الاَّ الرجال من سن الثلاثين فصاعدًا واذا شربتها امرأة فجزاؤها القتل . وكان يفرَض على

المرأة ان تحبّي زوجها واباها واخوتها تقبيلاً بالفم حتى يشموا نكهة فيها ويكونوا على ثقة انها لم تشرب خمرًا . ذكر بلينيوس المؤرخ ان رجلاً رومانيًّا ضرب زوجتهُ حتى ماتت لانها شربت خمرًا ولما رُفع امرهُ الى رومولوس باني رومية في زعمهم عفا عنهُ حاسبًا انهُ لم يرتكب جريمة وكان ذلك سنة ٧٠٠ قبل المسيح

ثم لما تمّ لهم الغلب على ايطاليا ودانت لسطوتهم بلاد اليونان واسيا الصغرى كثرت لهم الملاذ وناضت عليهم دنان الشراب فانقلبوا في قرن واحد من شظف العيش الى رخائهِ ومن التقتير الى التبذير حتى جرت عادة كاتو الحكيم الذي نشأ في القرن الثاني قبل المسيح ان يعير اهل بلادهِ اكثارهم من الخمر بعد ان كان القليلون يشربونها في ايام ابيهِ

واهتمّ الرومانيون بالمسكرات اهتمامًا لا مثيل لهُ في تواريخ الامم . فكان عندهم مئة وخمسة وتسعون نوعًا منها على ما ذكرهُ بلينيوس المؤرخ . ورخص ثمن الخمر العادية حتى صارت كالماء وكانوا يجلبون الرحيق منها من جزائر اليونان ويسمونها باسماء مختلفة حسب اوصافها . ويمحلونها بالعسل ويطيبونها بالاقاويه كالمر والصبر والقرنفل . وكثيرًا ما كانوا يمزجونها بماء البحر فيبعدون ثلاثة اميال عن البر والبحرُ زهو ويستقون منهُ ثم يمزجون الرطل من مائهِ بخمسين رطلاً من الخمر

وكانوا يعتّقون الخمر ويشربونها بعد ان يمرّ عليها سبعون سنة او ثمانون او مئة او مئتان . قالوا والخمر المعتقة كذلك تجمد في دنها حتى لا تنصب منهُ صبًّا بل تقرف بملعقة غرفًا كالعسل واذا فتح اناؤها تضوّع منها ريح طيب يملأ البيت ولعلّ الاخطل التفت الى مثل ذلك حيث قال

كميتاء قد كلفت من طول ما خبئت في مخدع بين جنّات وانهار
كانما المسك يجبو بين ارطلنا مما تضوّع من ناجردها الجاري

ولما تمّ عرش الجمهورية زاد اقبال الرومانيين على السكر والخلاعة رجالاً ونساء وتجد كتّابهم المشاهير مثل بلينيوس وجوفنال وسنيكا وتاشيتوس واثانيوس وغيرهم مجمعين على ذم تلك الحالة والشكوى منها . وصارت ولائمهم مجالس شرب وسكر واتّصل ذلك بالعبيد والخدم فعمّ السكر كل طبقات الناس وصاروا يبتدون غرفة بجانب غرفة الطعام يسمونها غرفة القيء يذهب السكارى اليها لتفريغ ما في بطونهم . وكانت الجوائز تعطى لمن يقرع غيرهُ في شرب المسكر والمناصب تمهّد لهُ فلا عجب اذا اسرع الخراب والدمار الى تلك المملكة العظيمة وتغلبت عليها قبائل الشمال . هذا وسيأتي الكلام على تاريخ المسكرات عند العرب في الجزء التالي ثم عند غيرهم من الامم